التوثيق التاريخي وأهميته خلال عصر العصر الحديث

د. المدني سعيد عمر

قسم التاريخ كلية الآداب. جامعة غريان

تمهيد

شهد القرن الثامن عشر حركة علمية وفلسفية واسعة ذات طابع ثوري، أطلق عليها اسم الاستنارة تحت رعاية الحكومات والأكاديميات العلمية لتبادل وجهات النظر بين المتعلمين، كما شهد العديد من التحولات التاريخية في مجال الاكتشافات والابتكارات والاهتمام بالحداثة، ونقل المجتمع من الاعتماد الخرافات والأساطير إلى تاريخ مبني على المعلومات والتوثيق الصحيح بدلا من ذلك ومن هنا جاء اختياري لهذا الموضوع.

من خلال ذلك نقول بأن التاريخ أخد اتجاهاً علمياً معتمدا على التوثيق.

كان التوثيق التاريخي قبل القرن الثامن عشر يهتم بالأدب والتأملات والأساطير ومدائح الملوك، والاهتمام بالغيبيات والقوي الخارقة للطبيعة أو ما يسمي بعصر التنوير أخد التاريخ شكله العلمي في قواعد وأصول فنية علمية راسخة، ولم تعد الأفكار التي سيطرت على فكر المؤرخ التقليدي وهي اهتمامه بشؤون السياسة وأحداثها بل أصبح التاريخ علماً عملياً موضوعياً.

فقد بدل المؤرخون جهدهم لبحث موضوعات تاريخية مهمة وشهد هذا القرن ظهور فلاسفة ومؤرخين عدة من أمثال، فيكو، وفولتير، وجيبون، وهيوم، ومونتيسكيو، وروسو، وآدم سميث، وكوندرسيه، وغيرهم ممن عالج البحث فلسفتهم ونظرتهم للتاريخ.

لقد أسهم فلاسفة عصر الاستنارة بأفكار جديدة في الدراسات التاريخية من خلال نقدهم للنصوص مما خلص التاريخ من الكثير من الأخطاء وهم أول من وسع أفق الإنسان الأوربي وغيره في نظرته للتاريخ، حتى غدت نظرة المؤرخ خلال عصر التنوير أكثر تحررا وأبعد عن التعصب الديني والقومي، وتوصلوا إلى أن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عنه تقدم العقل البشري.

يهتم التوثيق التاريخي قبل عصر التنوير مع التركيز على ما يشهده القرن الثامن عشر من تنوع في آفاق المعرفة التاريخية، وتنوع فروع التاريخ وتطور طرائق البحث التاريخية، حتى أطلق على القرن الثامن عشر بعصر صناعة التاريخ.

ازدهرت ملامح القرن الثامن عشر بكونه عصر التنوير Enlightment أو الاحتكام إلي العقل، إذ ظهر فيه فلاسفة ومفكرون عظام في مختلف فرع المعرفة، أما التاريخ فقد أخد يستقر شيئا فشيئاً على قواعد وأصول فنية علمية خرجت به من مجال الأدب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين، ومدائح الملوك إلى أرض العلم الصلبة.

وكان الاهتمام بالتاريخ في هذا القرن مظهرا من مظاهر الاهتمام بالإنسان، بمجرد دراسة الإنسان، بل لأن دراسة الماضي تزيدنا خبرة وتجربة، فضلاً عما في دراسة التاريخ من إشباع للنزعة العقلية في إصدار أحكام متحررة عن آراء الكنيسة ورجال السياسة، أخد المؤرخون ينتقدون القاعدة اللاهوتية التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى.

أهمية التوثيق

زادت موجة الحماس لدراسة التاريخ إذ كرس طلاب المعرفة، في ايطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، حياتهم لبحث موضوعات تاريخية متنوعة، وحاولوا

معالجتها بشكل يختلف عما عهد من قبل أثناء عصور الانقسامات الدينية والدستورية في أوربا.

ويعد فيكو، وفولتير، وجيبون أبرز الأمثلة لمدرسة الاستنارة في التاريخ، ورواد تلك الحركة. نشر جامبا تيستا فيكو (2) Giambathista Vico سنة 1725، رسالة جامعية شاملة بعنوان "أصول علم جديد" عد فيها التاريخ "فرعاً من علم واسع شامل لشؤون المجتمع الإنساني، كما اقترح مبادئ جديدة لتكون أساساً للبحث التاريخي، وهو أول من حاول " نقل التاريخ من ميدان الحرب إلي قاعات الدرس"(3) ، حاول تطبيق المنهج العلمي علي دراسة التاريخ ،فقد قسم التاريخ إلي ثلاثة مراحل تاريخية

الأولي: إلهية، أي العصر الذي كان الناس يردون الحوادث إلي صنع الآلهة.

الثانية: بطولية، كان التاريخ فيها سرداً لأعمال وعظماء الرجال.

الثالثة: إنسانية، وهي التي تنبه فيه المؤرخون إلى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب(4). وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم فإن فيكو يعد. في نظر كثير من الباحثين. أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ في العصر الحديث (5).

وعن فائدة كتاب فيكو على فلسفة التاريخ يجدر بنا أن ننقل هنا نصا مانعته به هرنشو، حيث قال "حسبنا أن نقول إن يعتبر في مقدمة ما كتب في هذا الموضوع في القرن الثامن عشر(6)".

واشتهر الفيلسوف فرانسوا ماري دي فولتير (7) Volteire 1649-1778م بكونه رائد هذه المدرسة التاريخية العقلانية "لإيمانه العميق بالعلم والعقل، ويرجع الفضل إليه بالنقلة النوعية بمناهج البحث التاريخي لأمر دفع الكثير من المؤرخين أن يعدوه مؤسس علم التاريخ" بمفهومه الحالي في الغرب وهو

صاحب أكب إنتاج أدبي في تاريخ الإنسانية فقد بلغ عدد مقالاته ورسائله وحدها عشرة آلاف.

وعندما نشر فولتير كتابه الأول عن حياة الملك " شارل الثاني عشر " Historie De Charles X11 (8) وحروبه مع الروس 1731 م، رأي فيه لون الناس لوناً جديداً من التاريخ لم يعرفوه من قبل، فقد عرف كيف يتأنى في الحكم، ويحسن المقارنة بين شارل الشاب المغامر، ومنافسة القيصر الروسي بطرس الأكبر إذ رأى في الأول "شابا متهورا في حين وصف بطرس الأكبر (9) بأنه "رجل مصلح أنشأ إمبراطورية واسعة، رغم قسوته وعنفه (10).

أما أهم مؤلفات فولتير، من حيث تطورها التاريخي فكتابه "عصر لويس الرابع عشر" La Siscle De Louis XIV (11) سنة 1751م، الذي وصف بأنه" أول مؤلف تاريخي بالمعني الحديث "فقد تخلى فولتير فيه تماماً عن النظام الحولي، والتتابع الزمني للأحداث ونظم كتابه على أساس ترتيب الموضوعات، وأبدى فيه براعة فائقة في تحليل الأحداث والأشخاص، وهي المرة الأولى التي يتناول فيها كتاب تاريخي حضارة أوربية تناولاً شاملاً(12).

مما حدا بلويس الرابع عشر أن يخلع على فولتير لقب "مؤرخ فرنسا الرسمي" (13).

أراد فولتير أن يؤرخ للعالم إلا أنه لم يستطع السير في عمل ضخم كهذا، واقتصر جهده عام 1756م، على تحرير كتيب بعنوان "مقال عن الاختلاف والعادات" الذي يعد أول مؤلف في التاريخ العالمي بالمعني الحقيقي للمصطلح، وكانت هذه أول مرة تم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية، والحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوربية، ونبه فولتير إلى "أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تدخل في صميم عمل المؤرخ شأن أخبار البابوات والملوك " (14).

اهتم فولتير بالتاريخ للحضارات بدل "الملوك والقادرة" لأن أخبار السياسة والحرب، حسب رأيه، لا تفصح عن العقل الإنساني خلال تلك العصور" يقول فولتير في هذا الصدد ما نصه:

إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب والمعاهدات، ولكني بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة آلف وأربعة آلاف معركة، وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة مما كنت قبلها، حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة، وأي حكمة تكتسب من العلم بسيادة طاغية على شعب بربري لا هم له إلا أن يغزو ويدمر (15).

كما أنه وسع دائرة التاريخ فلا تكون وقفاً على تاريخ أوروبا فقط، وإن أزهي أصول التاريخ الأوربي، في رأيه، تتمثل في فترات أربعة: التاريخ اليوناني القديم، ثم الدول الرومانية إبان ازدهار حضارتها ثم عصر النهضة، وأخير عصر التنوير، وهو "أكثر استنارة" (16).

ويرجع الفضل إلى فولتير في أنه أول من استخدم مصطلح "فلسفة التاريخ" (17) وقصد به رفض التاريخ المليء بالخرافات وكتابة الحوليات وتنقيح التاريخ من المبالغات، وتخليصه من الأساطير" لذا نجده يرفض الأخذ بفكرة "العناية الإلهية" التي دارت حولها تفسيرات التاريخ في العصور الوسطى من البحث في طبيعة المسيح عليه السلام، وشخصه، وما إلى ذلك (18).

وعلى الرغم من أن الكثير من المؤرخين يعدون فولتير مؤسس "العلم التاريخي" إلا إن الدكتور حسين مؤنس، عده من "هواة التاريخ وليس مؤرخا" لأنه "كتب التاريخ على أنه لون من الأدب والفلسفة، وهو يمثل القمة التي وصل إليها لون من ألوان الفكر الغربي، الذي نشأ في عصر النهضة وجمع أصحابه مؤلفاتهم أطرافاً من الفلسفة وأخرى من التاريخ وأضافوا إلى ذلك فيضاً من التأملات والآراء الصائبة (19).

ومهما يكم من أمر فقد بدأ الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي بعد ظهور فوليتر حتى بلغ ذروته أوائل القرن الماضي، وغدا هدف المؤرخ يتجه نحو دراسة المجتمعات التاريخية، وبيان تطورها التاريخي والعوامل التي أثرت فيه.

ولقد أثر فولتير بنزعته العقلية في المؤلفات التاريخية التي كتبها ديفيد هيوم David Hume، الذي صرف جزءاً كبيراً من وقته في تأليف تاريخ إنجلترا في ستة مجلدات (21). عد هيوم التاريخ سجلا لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، لكنه آثر في الوقت نفسه أن يكتب تاريخا سياسياً، لذا سارت كتاباته عل نهج ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والدين هي التي تشكل السياسة (22)، وكن عداؤه للأساطير والخرافات وتزمت المسيحية مبعث عدم تقديره للعصور الوسطى التي اعتبرها "ألف سنة من الركود والفراغ الثقافي، أو منخفض هائل في الخط البياني للتقدم البشري" (23).

أما شارل دي مونتسكيو Montesquien المؤرخ الاجتماعي الفرنسي، فقد أطلق عليه البعض اسم " مؤسس فلسفة التاريخ "، كما سماه آخرون "رائد المنهج العلمي في التاريخ "ورائد الحضارة في العصر الحديث" (25).

وجد مونتسكيو في دارسة التاريخ خير سند له في دراساته الأخلاقية، والقانونية، والاقتصادية فوجد أنه لكي يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة صحيحة لابد أن "يلجأ لتاريخ الأمم والمجتمعات فيدرس فيها هذه الظواهر وتطورها أو العلل التي تخضع لها" (26) وقد طبق الرومان انحلالهم وكتاب "روح القوانين" سنة 1748 (27). عرض فيه "نظرية المناخات" التي ربط فيها بين البيئة الجغرافية، وطبيعة التشريعية والقانونية، فأوضح أن التربة والمناخ والطبوغرافيا والانثروبولوجيا في الشعوب المختلفة هي "الظروف الأساسية التي ترعرعت فيها شرائعهم وأنظمتهم (28).

ويحدد مونتسكيو العوامل التي تشكل قوانين الدولة، وشكل الحكومة، وشخصية الأمة، فيردها إلى عوامل مادية طبيعة، أو معنوية اجتماعية. أما العوامل الطبيعية فهي عوامل جغرافية أي أن الناس في مختلف الأقاليم يختلفون تبعاً لعوامل المناخ، وطبيعة الأرض والموقع، ذلك أثراً على أجزاء الجسم الإنساني، ومن ثم يتشكل مزاجه، وأخلاقه وعاداته، وطباعه، فحيوية الناس. حسب رايه. في المناطق الباردة غيرها في المناطق الحارة (29).

فالمناخ البارد بنظره ينتج أناسا يتميزون بالقوة والشجاعة، وهذا ما أتاح لهم الحفاظ على حريتهم، في حين أن المناخ الحار يولد أناساً ضعافاً بالنسبة للسلوك (30).

كما يختلف مفهوم الحرية والأنظمة الاقتصادية كالضرائب، وأنظمة الحرب في هذه المجتمعات وفقاً لشكل الحكم فيها، وهذا بدوره قد شكلته العوامل الجغرافية، فحالة القحط أدت بالتتار إلى كثرة الحروب والتعطش للدماء والتدمير، بينما تميل القبائل العربية إلي الحرية، وان عانت من القحط أيضا (31).

أما العوامل المعنوية أو الاجتماعية التي تشكل بدورها نظام الحكم وقوانين الدولة فأهمها العوامل الاقتصادية وأمور الدين، أما المسائل فيعرض مونتسكيو لأنظمة التجارة والضرائب في المجتمعات القديمة وعوامل تطورها، وأثر القوانين الوضعية في حركة التجارة، وانعكاس ذلك على عدد السكان وحركتهم ونموهم (32). أما بالنسبة للدين فيرى مونتسكيو الإسلام أكثر ملاءمة لشعوب الشرق، بينما المسيحية تناسب الأوربيين لأسباب جغرافية من جهة، متعلقة بشكل الحكومة من جهة أخرى (33).

لقد درس مونتسكيو بإسهاب مستخدماَ المنهج التاريخي، والمنهج المقارن واستطاع أن يحدد نظام الحكم بالعوامل الجغرافية أو المادية والاجتماعية أو

الثقافية، وقد أولى العوامل الجغرافية اهتماماً خاصاً، وبين أثرها في شكل المجتمع، كما أشار إلى أن العوامل الجغرافية إن ساد تأثيرها على العوامل الثقافية والاجتماعية، فإن هذا يعني جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور نظراً لثبات العامل الجغرافي إذا قيس بالعامل الثقافي (34).

وبطبيعة الحال إنكار الصلة القائمة بين الحضارة والظروف كالمناخ، والأحوال الجغرافية الأخرى إلا أن الذي يحدد شخصية الحضارة هو الإنسان القادر على تحدي الظروف الطبيعية والمناخية.

وقد تعرضت "نظرية المناخات" لدى مونتسكيو لانتقادات عديدة، فقد أشار فولغين إلى أن نظرية مونتسكيو "تجهل كل شيء على الصيرورة"، التي تقضي إلى حلول وأشكال اجتماعية عليا مكان أشكال دنيا (35).

وكان ينقص مونتسكيو التعمق في تاريخ الكثير من الشعوب، فاقتصرت، شواهد على الثقافة الأوروبية وقتذاك.

وينتمي جان جاك روسو (36)J.J Russo_1712_1779م إلى عصر الاستنارة، فكان يري أن الإنسان يولد بطبعه حر، وأن التنظيم الاجتماعي قد وضع الأغلال بين يديه، وقد سلم روسو "بالتفاوت الاجتماعي" بين البشر، ولكن هذا التفاوت غير بالغ الضخامة (37).

يعد" العقد الاجتماعي "أهم مؤلفاته وأكثرها شهرة. أطلق عليه مؤرخو الفلسفة اسم "إنجيل الثورة الفرنسية" ودستور الثورة لما تضمنه من آراء سياسية ساعدت على انفجار مراجل الثورة الفرنسية التي تغلي في قلوب الفرنسيين (38).

وروسو من المفكرين الذين أكدوا على أهمية أثر البيئة في تطور البشر الاجتماعي ثم الحضاري بصورة عامة، فأشار إلى أنه عرضت للإنسان في بادئ الأمر عوائق طبيعة كالجذب والبر والقيظ وغيرها، وقد اضطره ذلك إلى التعاون مع غيره من أبناء جنسه مؤقتا بغية ممارسة الصيد، وتربية الحيوان

لتوفير القوت. ثم ظهرت إلى السطح واضحة مطامح الإنسان المختلفة لاسيما نزعاته المتمثلة بالتنافس والخصومة (39).

ويعد المؤرخون النصف الثاني من القرن الثامن عشر بداية الانقلاب الصناعي في أوروبا أو ما عرف بالثورة الصناعية، وبدأ هذا الانقلاب يؤثر في المسلكية الإنتاجية وفي الحياة والبيئة الاجتماعية فعندما بدأت الآلة تحل محل الأيدي العاملة انتشرت البطالة، وازدادت حالة البؤس والفقر، وأخذت الثروات من الناتج الصناعي تتجمع لدى شريحة ضيقة من المجتمع، ومن هنا تنبه علماء التاريخ والاجتماع إلى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ، فظهر علماء ومؤرخون اهتموا بالتعليل الاقتصادي خلال القرن الثامن عشر.

ولا يمكن أن نترك مؤرخي عصر الاستنارة، دون الإشارة إلى آدم سميث Adam Smith، مؤسس علم الاقتصاد ومؤلفه الشهير عن "ثروة الأمم" سنة 1776م، وهو كتاب "تاريخ في صميمه و في طريقته، وفيه لفت سميث الأنظار إلى "أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ" (41) وهي من أهم العوامل وأولاها بالاهتمام ويكفي أن نذكر إن جيبون (42)، في بحثه الطويل عن أسباب سقوط روما لم ينتبه للعامل الاقتصادي، إنما تنبه إليه المؤرخون بعد أن كشف آدم سميث عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات، وقد أفاض كارل ماركس (43) Karl Marx بعد ذلك في هذه الناحية لكن سميث يعد صاحب الفضل الأول في استلفات أنظار الناس لأهمية العامل الاقتصادي (44).

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علماً محترماً ظهرت ثالث كبار عصر الاستنارة، إدوارد جيبون "(45) Edwer Gibbon 1737-1794، الذي يعد من أعاظم المؤرخين وأساتذة علم التاريخ على مر العصور، أصدر بين عامي 1776_1788 كتابه الشهير "تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"

(46) ويقع في ستة مجلدات، فحظي على الفور بالثناء والانتشار، ورغم إن الكتاب حافل بوجوه النقص، لكنه عمل علمي رائع متبه صاحبه عن إيمان عميق بأهمية ما يعمل، وأنفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريبا.

اختلفت الآراء حول جيبون اختلاف كبيراَ فالبعض عده أعظم المؤرخين الإنجليز "الأمر الذي حدا بالمؤرخ Bury إلي القول "إنك لن تكون مؤرخاَ حتى تقرأ جيبون (47) وجاراه في ذلك الناقد هنري جونسون، إذ وصف كتابه بأنه" أعظم التواريخ" (48).

كان جيبون بليغاَ فخم العبارة، نجح في أن يضع قارئه في العصر الذي يتحدث عنه، حتى إنك لتسمع وأنت تقرأ، وصف خروج جيش قيصر من روما للحروب، وقعقعة العجلات، وصليل السيوف وصهيل الخيل (49) وأسلوبه مؤثر يدخل البهجة على نفس قارئه، فضلاً عن أن عمله يتميز بالدقة المتناهية (50).

وقارن بانز بين جيبون وفولتير بما نصه:

"ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً من فولتير على مجري الكتابة التاريخية في العصور التالية إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين. غير المؤرخين المحترفين. فاقت شهرة فولتير، ويرجع ذلك إلى إن موضوع بحثه الخاص بانهيار الحضارة الرومانية كان مقصوداً به أن يأخذ بألباب الجماهير، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم. ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فده، وكان أسلوبه رفيعا ومؤثراً، يدخل البهجة على نفس قارئة، فضلاً عن أن عمله تميز بدقة متناهية، وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون".

ولم يكتف بارنز بتلك المقارنة فحسب، بل وصف كتاب جيبون "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها بأنه" ظل مرجعاً يهتدي به، ومصدرا لا يرقى

إليه الشك طوال قرن ونصف، ولم يكن كتاباً رائجاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً.

ويلاحظ منتقدو جيبون أن كتابه لا يتميز " بفلسفة خاصة للتاريخ "بل إن الدقة والضبط والاستفادة من المراجع تنقصه في أحيان كثيرة، كما سخط عليه الكثيرون لتحرر فكرة وقلة إيمانه بالمسحية (53). لكن هذا بالذات أعطى الرجل الفرصة ليفهم الديانات الأخرى، وبذلك يعد جيبون من الأوربيين القلائـل الذين قدروا الإسلام، ورأوا جوانب عظمة الرسول الكريم

–صلى الله عليه وسلم–وهنا نجد جيبون أوسع ذهناً وأكثر تحرراً من فولتير الذي لم يستطع التخلص من أسر تعصبه الكاثوليكي.

ومهما يكن من أمر فقد ارتفع بالتاريخ إلى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك، وكان أكثر الجميع استنارة، فقد عاش في صميم "عصر التنوير" وعاصر أعلامه أمثال، فولتير، ومونتيسكيو، وجان روسو، وغيرهم من أعلام العصر، ويحس الإنسان وهو يقرؤه أنه أكثر الجميع استنارة.

ويمثل ماري جان انطوان كوندرسية (54) Mary Jan .A .Condorect-1793 1794م بمؤلفة الشهيرة "مسودة لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري" نموذج من المفكرين المعتنقين لنظرية التقدم معبرا في ذلك أيضا عن التنوير ويتمثل تصوره للتاريخ الماضي من أجل الحاضر والمستقبل فيما قدمه من لوحته التاريخية (55). ومن مفيد القول بأن الإنسان تطور وفق المراحل التالية –:

المرحلة الأولى: حيث اجتمع الأفراد على هيئة عشيرة كان رؤساؤها يحددون التنظيم السياسي والأخلاقي، وتكونت لدى الإنسان مفاهيم بدائية عن الكون.

المرحلة الثانية: عصر الأقوام الرعاة واستئناس الحيوان وظهور الحرف.

المرحلة الثالثة: عصر الزراعة واختراع الكتابة، وتكون النظام الإقطاعي ونشأة المدن.

المرحلة الرابعة: من التوثيق التاريخي إلى تقسيم العلوم وتمثل هذه المرحلة الخطوات الأولى في تقدم الفكر البشري، وتمثل تراث اليونان وازدهار العلوم والآداب والفنون (56).

المرحلة الخامسة: عصر تقدم العلوم وتبدأ بأرسطو (57) عندما خضعت اليونان للدولة الرومانية أقام بعض العلماء بالإسكندرية بعيداً عن استبعاد روما، ثم ذابت الديانات في المسحية، وصاحب انتشار المسحية ضعف الإمبراطورية وتدهور العلوم والفلسفة اليونانية.

المرحلة السادسة: من انحطاط العلوم إلي بعثها، ثم وقعت الشعوب فريسة الاضطهاد الثلاثي "المملوك والقادة والكهنة"، وهنا أنصف كوندرسيه الإسلام ودور المسلمين في التقدم الحضاري الأوربي إذ قال بهذا الصدد ما نصه:

أما في الشرق فقد حمل المسلمون تراث اليونان، وتقدمت بعض العلوم، وكان ذلك كافياً لتنبيه أوربا من غفلتها، وإن لم يحل ذلك دون عودة المسلمين إلى غفوتهم (58).

ولابد من الإشارة إلى أن لأرسطو أثرا في الفلاسفة المسلمين إذ لقبوه "المعلم الأول" في حين لقب الفارابي "المعلم الثاني" (59) وشرحوا فلسفة أرسطو ثم أخذها منهم الغرب فساعدوا بذلك على نقل الفكر اليوناني إلى أوروبا، وحفظوه من الضياع.

المرحلة السابعة: من بعث العلوم حتى اختراع الطباعة، ويشير إلى أربعة أسباب نبهت الفكر الإنساني، وأيقظته من سباته وهي:

1- النفور من تسلط الكنيسة.
2- تحرر بعض المدن وسعى بعض الملوك إلى نيل تأييدها ضد النبلاء.
3- الحروب الصليبية التي رغم تعصبها، إلا أنها أسهمت بالاحتكاك بحضارة الشرق وعلومه.

4- نشأة الجامعات التي غدت مراكز الفكر.

المرحلة الثامنة: من اختراع الطباعة حتى نير السلطات التقليدية، وأشار إلى أن هناك ثلاث وقائع كان لها أهميتها في هذه المرحلة وهي: اختراع آلة الطباعة، واحتلال الملمين القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد وهناك علامات على بعث الفكر الحر وتجلى ذلك في الإصلاح الديني، ظهور أفكار حقوق الشعوب وتقييد حرية الملك، وظهور المناهج الجديدة في العلوم (60).

المرحلة التاسعة: ظهور بيكون(61)، وجاليلو (62)، وديكارات(63) ، وهم من كبار المفكرين الذين أثروا في النهضة العلمية الجديدة ومنها أساليب كتابة وحفظ التاريخ (64).

ولقد أسهم فلاسفة عصر التنوير بأفكار جديدة في الدراسات التاريخية فقد جعلتهم نظرتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص، الأمر الذي خلص التاريخ من كثير من الأخطاء، وهم أول من وسع أفق الأوربي في نظرته إلى التاريخ، وقد أصبحت نظرة المؤرخ أكثر تحرراَ وأبعد عن التعصب الديني والقومي، وتوصلوا إلى إن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عنه تقدم العقل البشري.

ورغم أن مؤرخي القرن الثامن عشر لفتوا أنظار الناس إلى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمته الكبرى كدراسة إنسانية أصلية (65) والأفكار الرائعة التي قدموها وأسهموا في إحداث ثورة شاملة في مفهوم التاريخ فإن هذا لا يحول دون بعض المآخذ عليهم، فهناك عيوب أساسية شابت مناهج البحث التاريخي في القرن الثامن عشر وأبرزها:

أولاً: عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنساني بحيث خلت مؤلفاتهم تماما من أي إحساس بهذا، (66).

ثانيا: حكموا على عصور الماضي بمعايير حاضرهم ومن ثم كان نقدهم العنيف للعصر الوسيط، وقد انتقلت حملتهم على رجال الدين إلى أن مست الدين نفسه إذ لم يكن في نظرهم عاملاً من عوامل تشكيل الحضارة، ولم يحاولوا فهم الماضي في ضوئه بل في ضوء قيمهم وأحكامهم (67).

ثالثا: رغم أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليها كانت ضئيلة إلى حد بعيد، بمعني أن مؤرخي تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة، لكنهم نادرا ما كانوا يمكنون على تحليلها.

رابعا: لم يكن التاريخ حتى في القرن الثامن عشر مادة دراسية مستقلة في مدارس وجامعات أوروبا، ولم يكن يدرس مستقلا سوى في عصور الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسي (68).

خامسا: قلة تنبه مؤرخي القرن الثامن عشر إلى تطور الإنسان ومجتمعه، فإنسان عصرهم في نظرهم هو إنسان العصور القديمة، ومنة أساؤوا الظن بتصرفات الناس والسخرية من أعمالهم (69)، وهم بهذا أقرب إلى الأخلاقيين منهم إلى العلماء أو المؤرخين المحترفين، ولهذا فإنهم لم يصلوا بالتاريخ إلى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات.

سادسا: لم تتمكن نظرية التقدم التي سادت عقول مؤرخي القرن الثامن عشر من أن تزيح موجة التشاؤم التي رسخت في أعماق الإنسان العادي منذ العصر القديم، يعود ذلك إلى أنها لم تتصور التقدم إلا علمياً ماديا في حين أغلقت الجوانب الإنسانية الأخرى والجوانب الروحية (70).

ومع ذلك كان التوثيق في عصر الاستنارة مدخلاً للتاريخ العلمي وكان فاتحة لثورة الدراسات التاريخية التي شهدها القرن التاسع عشر، إذ تنوعت فروع التاريخ وآفاق المعرفة التاريخية، كما اتسعت الدراسات التاريخية وتنوعت

طرائق البحث التاريخي حتى سمى القرن التاسع عشر بعصر صناعة التاريخ، وخلاصة القول بان تكونت لدى الإنسان مفاهيم بدائية، عن الكون وبدا عصر الإقطاع ونشأة المدن ووصل إلى مرحلة الاهتمام بالتاريخ وتقسيم العلوم وبدا عصر تقدم العلوم في عهد أرسطو.

نشأة الجامعات التي غدت مركز من مراكز البحث العلمي بالإضافة إلى ظهور الطابعة وظهور المناهج الجديدة بالعلوم، واهتم العلماء بعصر التنوير وظهور أفكار جديدة في الدراسات التاريخية، بالتالي أصبح التوثيق التاريخي بعصر الاستنارة مدخل للتاريخ العلمي، وكان فاتحة لثورات الدراسات التاريخية التي شهدها القرن الثامن عشر، تنوعت فروع التاريخ وأصبح له فروع متنوعة حتى سمي القرن الثامن عشر بعصر التاريخ.

المصادر والمراجع:

1. أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، د . ت.
2. إرنست كارسيرر، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمت إحسان عباس بيروت، 1961.
3. إسماعيل أحمد باغي، مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه الرياض، 1999.
4. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، مجلة عالم الفكر المجلد 20، الكويت، 1994.
5. استغرق كتابة أربعة عشر عاماً من 1734_1748، وكانت فكرة تأليفه تراوده منذ الصغر، نشره سنة 1750.
6. إرنست كارسيرر، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمت إحسان عباس بيروت، 1961، ص.
7. هاشم يحيي الملاح وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة الموصل، 1988، ص 101.
8. أحمد محمود صبحي، المراجع السابق، ص. 86.
9. المرجع نفسه.
10. محمود الحراري، المرجع السابق، ص. 101.
11. أحمد محمود صبحي المرجع السابق ص 86.
12. فولغين، فلسفة الأنوار ترجمة هنري عبودي، بيروت 1981، ص. 54.
13. فيلسوف فرنسي ولد بجنيف، رافق ديفيد هيوم في رحلة إلى إنجلترا، ثم عاد لفرنسا بعدما اختلفت معه، ترك آثار في مجالات السياسية والفكر والأدب والتربية.
14. ويد جيري، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج. 2، القاهرة، 1972ص. 35.
15. رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص 127 محمود الحويري، المرجع السابق، ص. 102.
16. هاشم يحيى الملاح وآخرون، المرجع السابق، ص. 103.
17. 1723_1790 استكلندي الأصل من كبار المفكرين الاقتصاديين.
18. حسن مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص. 75.
19. سنأتي علي ذكره لاحقاَ.
20. 1818_1883، ولد في تريفز، يعد كتابة (رأس المال) أهم كتبه على الإطلاق، يقع في ثلاث مجلدات، نشر سنة 1867.
21. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص. 75.
22. مؤرخ انجليزي، تعلم بأكسفورد ولوزان وروما.
23. إسماعيل ياغي، المرجع السابق، ص. 184.
24. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، دار النشر، القاهرة، 1984 ص. 75.
25. هنري جونسون، تدرس التاريخ، ترجمة أبو الفتوح رضوان، القاهرة، د. ت، ص. 71.
26. إسماعيل ياغي، المرجع السابق، ص. 184.
27. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون ص. 73_74.
28. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج. 1، ص. 223.
29. المرجع نفسه.

30. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص. 74.
31. رجائي، مدخل لدراسة التاريخ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 1986، ص. 111.
32. حين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت 1974، ص. 76.
33. للتفاصيل عن فيكو ونظريته في التعاقب الدوري للحضارات ينظر: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، د، ت، ص 153_165.
34. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد عبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1973، ص. 62.
35. ولد في باريس من أسرة ثرية درس القانون والأدب، سجن في الباستيل، وأرقام ثلاث سنوات في إنجلترا درس خلالها الفلسفة الإنجليزية، وأصبح من أكبر مؤرخي فرنسا ثم رحل إلى لبروسيا، تم عاد الي باريس ومات فيها.
36. 1682_1718 ملك السويد توج نفسه بيده، تحالف ضد بطرس الأول قيصر روسيا، قتل في النرويج في إحدى المعارك.
37. 1672_1725 مؤسس روسيا الحديثة زار بلداناً عديدة تحالف مع الدنمارك وهولندا ضد شارل وهزمه في معركة بلطاوة.
38. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون مرجع سابق، ص. 71.
39. 1638_1715 لقب (الملك الشمس) رفع الملكية الفرنسية إلى ذروة مجدها، أمتاز عهده بالإصلاح الاقتصادي والإداري، انتهج سياسة خارجية تعتمد على تفوق فرنسا على سائر أوروبا لذا سمي عهده بعهد التفوق الفرنسي.
40. قاسم عبده تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974، ص. 211.
41. محمد عواد حسين، صناعة التاريخ، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1974، ص. 130.
42. إسماعيل احمد ياغي، مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، مكتبة العبيكان، الرياض 1999، ص. 168، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص. 211.
43. أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص. 181.
44. المرجع نفسه.
45. ألف فولتير كتاباً بهذا العنوان سنة 1765.
46. محمود الحويري، المرجع السابق، ص. 99.
47. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص. 71.
48. 1711_1776، فيلسوف ومؤرخ اقتصادي أسكتلندي عرف مذهبه بالشك، مؤلفه الرئيسي (رسالة في الطبيعة البشرية).
49. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج. 1، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982، ص. 219.
50. 1689-1755، مارس المحاماة في باريس، انضم لأكاديمية بورلا عام 1716.
51. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج. 2، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982، ص. 31.
52. رأفت غنيمي الشيخ، في فلسفة التاريخ ،1996، ص 122.

53. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ ومدخل الي فقة التاريخ، دار الرشاد، القاهرة ،1984.
54. رأفت غنيمي الشيخ، في فلسفة التاريخ ،1996.
55. رجائي ريان، مدخل لدراسة التاريخ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 1986.
56. طه باقر وعبد العزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد 1980.
57. فولغين، فلسفة الأنوار ترجمة هنريس عبودي، بيروت ،1981.
58. قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974.
59. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، بيروت، 1995.
60. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، بيروت، 1995.
61. محمد عواد حسين، صناعة التاريخ، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1974.
62. محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، منشورات المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001.
63. هاري بارنز، تاريخ كتابة التاريخية، ج 1، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982.
64. هاري بارنز، تاريخ كتابة التاريخية، ج 2، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982.
65. هاشم يحيى الملاح وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة الموصل، 1988.
66. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد عبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،1937.
67. هنري جونسون، تدريس التاريخ، ترجمة أبو الفتوح رضوان، القاهرة، د.ت.
68. ويد جيري، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج2، القاهرة، 1972.